الفكر الخلدوني و أزمة المجتمع العربي المعاصر
(ثلاثية: التّرف، الظُّلم والثورة)

د. البشير قلاتي

جامعة الأمير عبد القادر -قسنطينة

لا شكّ أن دراسة التاريخ من ضرورات المعرفة الانسانية عند الأمم الحية، فأحادث التاريخ لا تروى من باب الإمتاع والمؤانسة ،ولكن من باب استخلاص العبر والدروس للاستفادة منها في الواقع المعيش في جوانبه المختلفة اجتماعا، اقتصادا، سياسة.....ولهذا اعتبر بعض المؤرخين الغربيين مثل الفرنسي(مارك بلوخ) التاريخ، دراسة البشر في الزمن؛أي في سياق الماضي، الحاضر والمستقبل، فالمؤرخ هو انتروبولوجي،عالم اجتماع وعالم مستقبليات، ونفس الفكرة نجدها عند (جان بياجيه)و الباحث المشهور (قسطنطين زريق) الذي كتب أولا عن التاريخ في الماضي (كتاب نحن والتاريخ عام1959)، وفي الحاضر (كتاب في معركة الحضارة 1964م)، وفي المستقبل (كتاب نحن والمستقبل 1977م).[1]

يقول محمد رشيد رضا (ر.ه) في تفسير قوله تعالى: ((فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)) (النحل/36) " يجب على الأمة في مجموعها

[1] -وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ، اتجاهات،مدارس، مناهج، بيروت، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية، ط2، يوليو2013، ص233 ،234.

أن يكون فيها قوم يبيّنون سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غيرها من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وبينها العلماء بالتفصيل، عملاً بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها. والقرآن يحيل إليه في مواضع كثيرة. وقد دلنا على مأخذه على أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها"(رشيد رضا،تفسير المنار،المجلد الأول).ولعل أشهر من تصدى لذلك ،عبد الرحمن ابن خلدون (808/732ه)، ضمن موسوعته (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)...

تبرز أهمية عبد الرحمان بن خلدون(رحمه الله) من خلال أثره البالغ في تطور (فلسفة التاريخ)، وتأثيره على من جاء بعده من كبار الفلاسفة ومؤرخي الحضارات في العالم[1] ، ليس على الثقافة الاسلامية فحسب، بل تعدى أثره إلى الثقافة العالمية ؛حتى اعتبره البعض المؤسس الحقيقي لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، وأصول منهجه، في دراسة أحداث التاريخ الذي بوّأه مكانة المعلم الأول ...وفي ظل ما يحوط الأمة الإسلامية من تحديات كبرى،نسأل: كيف يمكن لها أن تستفيد من أفكار هذا الرجل الذي أشاد الكثير من الباحثين بعبقريته التي سبق بها عصره،،؟؟ وكيف يمكننا تطبيق أفكاره على مشكلات مجتمعنا؟؟ ..... بعيدا عن عقدة اتسامي أو هيام المديح، لا يسعنا إلا نعترف أن (عبد الرحمن بن خلدون) كان عملاقا في تاريخنا الثقافي ،فهو العقل الفذّ

[1] – يشير سعد الدين ابراهيم مدير مركز ابن خلدون للدراسات بالقاهرة ما يثبت إلى تأثر عمالقة الفكر السياسي والاجتماعي الغربيين بابن خلدون مثل ماكيافيللي، مونتسكيو، أوجست كونت.وحتى هيجل..أنظر: أحمد صبحي منصور، = =مقدمة ابن خلدون،دراسة أصولية تاريخية ،تقديم سعد الدين ابراهيم،، القاهرة :مركز ابن خلدون، دار الامين للنشر،1998م، ص4و5.

الـذي درس أحـداث التـاريخ وفـق المنظـور السـنني الفاحص،ليتوصـل إلـى قـوانين سـيرورته عبـر نهـر الـزّمن الجـاري،،،، وهـو مـا يتوافـق مـع مـنهج القـرآن الكـريم الأصـل الـديني المقـدّس، الـذي اسـتقرأ منـه إبـن خلـدون منهجـه فـي دراسـاته التاريخيـة باعتبـاره عالمـاً شـرعياً وفقيهـاً وقاضـياً يسـتقى أحكامـه مـن آيـات القـرآن الكـريم أولا والمعـروف أن المـنهج القرآنـي مـن جهـة أخـرى يقـوم علـى توجيـه العقـول والحـواس إلـى التأمـل والتـدبر فـي أيـام الله قـال تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا مُوسَـى بِآيَاتِنَـا أَنْ أَخْـرِجْ قَوْمَـكَ مِـنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَـى النُّـورِ وَذَكِّـرْهُمْ بِأَيَّـامِ اللهِ إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لآيَـاتٍ لِّكُـلِّ صَـبَّارٍ شَـكُورٍ﴾ (إبـراهيم / 6، 7)،مـع مـا تزخـر بـه آياتـه مـن الـدعوة إلـى توجيـه النظـر فـي قصـص الأولـين بأخـذ العبـر والـدروس ﴿ **لقـد كـان فـي قصصـهم عبـرة لأولـى الألبـاب؛ مـا كـان حـديثا يفتـرى ولكـن تصـديق الـذي بـين يديـه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ (يوسف/111).

وهـذا مـا جعـل بعـض الدارسـين للتـاريخ يـذهبون إلـى أن ابـن خلـدون كشـف مـنهج القـرآن فـي ذكـر الأخبـار والحـوادث التاريخيـة أو مـا يسـميه (أيـام الله) وطبـق ذلـك علـى الأحـداث التاريخيـة التـي عايشـها أو درسـها[1] ،ولهـذا سـمىّ دراسـته الضـخمة للتـاريخ " العبـر ". وعمومـا فـإن " علـم الاجتمـاع الخلـدوني نتـاج التفكيـر العلمـي الإسـلامي الـذي ينشـد فهـم سـنن الله فـي العـالم المـادي والعـالم الاجتمـاعي علـى حـد سـواء ".[2]،ولابـن خلدون في ذلك فضل كبير....

[1] – عمـاد الـدين خليـل ، حـول تشـكيل العقـل المسـلم ، ط1 ، الإتحـاد الإسـلامي العـالمي للمنظمات الطلابية ، 1989 م ص 40 .

[2] – سـليمان الخطيـب، أسـس مفهـوم الحضـارة فـي الإسـلام، ط1، القـاهرة:الزهراء للأعـلام العربي، 1406 ه/1986 م ، ص 57 .

المنهج الخلدوني في دراسة التاريخ:

سلك بن خلدون في دراسته للتاريخ منهجا تأمليا علميا، يستقرئ فيه وقائع التاريخ؛ يتأملها:مقارنًا محللاً، ليتوصّل بذلك إلى القوانين الاجتماعية والتي تحكمها يصوغها علميا كسنن مضطردة؛ تساعد على فهم الحاضر وصياغة المستقبل، ولهذا يعتبره مالك بن نبي(1905– 1973 م) (رحمه الله) "مكتشف منطق التاريخ في مجرى أحداثه "[1]. و نفهم حسرته على اهمال الأفكار الخلدونية في تحليل الأزمة الحضارية للأمة على مستوى النخب العلمية ،نتيجة زحف التخلف وتمكنه من العقول، يقول: "ففي المجتمع التاريخي إذا ضعفت الروح شكل ذلك إيذانا بتوقف المجتمع وتقهقره، وفي مجتمع كهذا يفقد العقل إشعاعه ويصاب بالجمود لأن الأفكار الحية لا تجد لها صدقا في مجتمع مريض، مثل تلك الأفكار الحية التي أبدعها عقل (ابن خلدون) والتي لم يستطع المجتمع أن يفهمها أو يستفيد منها...."."[2]

ورغم متغيرات عصرنا الذي نعيش فيه وجملة تحدياته الحادثة والمتوقعة التي تختلف كثيرا عن ما شهده عصر ابن خلدون (القرن الثامن هجري) إلا أننا يمكننا أن نستفيد من الكثير من أفكار ابن خلدون والتي سبق بها عصره ،وهو المأمول بعيدا عن كل نزوع للتسامي أو رغبة في المديح..... ولا ريب أن دراسة أفكار هذا العملاق جدير بأن يوضّح ويفسّر الكثير ممّا يعترض الأمة اليوم من مشكلات حضارية خطيرة .

---

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ،ترجمة عبد الصبور شاهين،وعمر كامل مسقاوي،اصدار ندوة مالك بن نبي ،دمشق:دار الفكر،1406ه/1986م.ص 62 .

[2] – مالك بن نبي ،وجهة العالم الإسلامي، ندوة مالك بن نبي، الجزائر،دمشق: دار الفكر المعاصر ، ص31.

كان ابن خلدون ذو عقلية علمية نافذة ؛ لم تقنعه طريقة المؤرخين السابقين في نقل الأحداث دون تمحيص أو نقد، فلم يستفد الناس في فهم واقعهم أو حل مشكلاتهم، إذ فضلوا النقل على العقل والذاتية على الموضوعية والمنهج الروائي (السردي) على المنهج التحليلي وذِكر حياة الملوك ووصف المعارك والغزوات على دراسة أحوال العمران، والاجتماع البشري ... لقد علّمته تجارب الحياة أن للوقائع التاريخية نظامها وطابعها، ومن يتبصّر في أحوال الخليفة والأمم يدرك بواعث قيام الحضارات وأسباب انتشارها ولا يرجع ذلك إلى المصادفة، وإنما هي سنن تاريخية اجتماعية ،،،من هنا رأى أن التاريخ ميدان دراسة نقدية اختبارية تستخلص منه القوانين والسنن لفهم الحاضر والإعداد المستقبل[1].وحاول اتباع منهج علمي نقدي موضوعي بعيدا عما يسميه منهج الخطابة العاطفي. [2]

عمد إلى عرض أحداث التاريخ على محكّ العقل والواقع ؛ولهذا تُصفّى من أدران وتلويثات وتحريفات الهوى ، الذاتية والجهل والغفلة ... وكان يهدف إلى ربط الوقائع ببعضها من خلال العلاقات السببية والطردية وهو ما يجعل وقائع الاجتماع البشري تخضع لحتمية القوانين الاجتماعية مثلما يخضع العالم الطبيعي لحتمية القونين الطبيعيّة.

سلك بن خلدون في دراسته للتاريخ منهجا تأمليا علميا، يستقرئ فيه وقائع التاريخ، يتأملها:مقارنًا محللاً، ليتوصّل بذلك إلى القوانين الاجتماعية والتي تحكمها يصوغها علميا كسنن مضطردة تساعد على

[1] – عبد القادر عرابي، قراءة سوسيولوجية في منهجية ابن خلدون ،مجلة المستقبل العربي، س 12،ع 125بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، تموز 1989م، ص 91.

[2] وجيه كوثراني، م،س ، ص98 ،99

فهم الحاضر وصياغة المستقبل، وهو بذلك يعتبر بحق " مكتشف منطق التاريخ في مجرى أحداثه ".[1].

علم العمران عند ابن خلدون: يرى أن علم العمران هو : " خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرضه لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر يعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ،وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال".[2]

ويعتبر الحضارة نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير ، من خصائصها: " "تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والفرش..." [3] ويظهر أن الحضارة هي مرحلة وفرة الإنتاج المادي والتأنّق والتمتع بالحياة الرغدة مع ما يصاحبه من توسع العمران وتقدم تمدني ، ويلاحظ بداية تسرب الضغط العسكري بسبب تعلق الناس بالدنيا وما يسببه ذلك من جبن وخور عزيمة وخلود إلى الراحة والكسل .ويعدّ (ابن خلدون) أول من استعمل مصطلح حضارة في التراث الفكري الإسلامي ويعتبرها مرحلة حتمية بعد حصول الملك واستقراره ، فهي نهاية العمران حيث قمة الرفاهية والترف والفساد المؤذن بخراب العمران ، فالحضارة هي :" نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد

[1] – مالك بن نبي، شروط النهضة، م . س، ص 62 .

[2] – إبن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون ، د.ط، بيروت : دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة ، د.ت ، مج 1 المقدمة ،ص 57

[3] – ن،م ، ص 216 ، 304 .

عن الخير "[1].ولا شك أن ابن خلدون القاضي والسياسي ،وهو يعايش مآزق تجربة الموحدين في الحكم ، دعا إلى استقلال المنهج التاريخي ؛بتجاوز السياسة على المستوى المعرفي للإجابة عن سؤال محوري:"لماذا وكيف وقعت حالة التأزم الشاملة التي يعيشها العالم الاسلامي في عصره،،،؟".[2]

دعائم الدولة عند ابن خلدون :

يمكن أن نشير إلى أهم دعائم الملك عند ابن خلدون وهي:

أولا) العصبية والدّين: وهناك تلازم بين قوة العصبية والرياسة، فلا تقوم الرياسة إلا على العصبية: " فالملك يحصل بالتغلب ،والتغلب إنما يكون بالعصبية "[3] ،و الدين يسنِد العصيبة ويزيدها قوة، والدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها إلى قوة العصبية التي لها من عددها ، والسبب في ذلك أنَّ الصبغة الدينية تُذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الانتصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لان الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم ..." [4]. ويجزم ابن خلدون أن الدعوة الدينية لا تنجح في بلوغ أهدافها إلا إذا كانت تستند إلى عصبية قوية، لأن:" كل أمر تُحمل عليه الكافة فلا بد له من عصبية ، وفي الحديث الصحيح ما بعث الله نبيًا إلا في منعة من قومه "[5] وفي هذا الإطار يذكر ابن خلدون نماذج لمن قاموا بالدعوة

[1] – ن.م ، ن،ص .

[2] ـ وجيه كوثراني، ،م، س، ص78،97 .

[3] – تاريخ العلامة ابن خلدون ، ص 277 .

[4] – ن،م ، ص 278 .

[5] – ن،م، ص 279 ، 280 .

فـي المغـرب أو فـي المشـرق ورغـم صـدقهم وإخلاصـهم إلا أن أمـرهم لـم يتم ومنوا بالفشل الذريع ؛لأنهم افتقدوا إلى العصبية التي تسندهم .

فـإذا اجتمعـت الـدعوة الدينيـة بالعصـبية القويـة فـي قـوم ،لـم يقـم لهـم شـيء ؛لأن طبيعـة العقيـدة الدينيـة نفـي التحاسـد والتبـاغض والظلـم والعـدوان الـذي يحصـل غالبـا فـي عصـبية النسـب التـي ربمـا تسـربت إليهـا الأغراض وطغت عليها الأهواء.[1]

غيـر أننـا نلاحـظ مبالغـة ابـن خلـدون فـي اعتبـار العصـبية أصـل كـل تحـول تـاريخي وتغيّـر حضـاري وتجـاوز فـي ربـط نشـوء الدولـة بقـوة العصـبية، حتـى أننـا نشـعر أن العقيـدة الدينيـة مجـرد داعـم للعصـبية الدمويـة وجعـل مـن قـوة العصـبية ودورهـا فـي ذلـك قانونـا عامًـا. وهـو فـي ذلـك ربمـا متـأثر بأحـداث ووقـائع عصـره،.. فهـل أن الـدعوة الدينيـة مـن غيـر عصـبية لا تـتم ؟.... التسـليم بـذلك ينفـي الخصـائص الذاتيـة للـدعوة الدينيـة، ويضـعف مـن قـوة العقيـدة الدينيـة كطاقـة روحيـة ،دافعـة للحركـة والتغيـر ، فتصـبح مجـرد قـوة داعمـة للعصـبية القوميـة المبنيـة علـى القرابـة ، ومـا استشـهد بـه ابـن خلـدون مـن بعـض دعـاة التـأثير ضـد حكـم الجـور فـي المغـرب أو المشـرق ومـا لاقـوه مـن فشـل إنمـا يرجـع إلـى سـوء اسـتعداد وظروف مادية وتاريخية لم تتوفر لهم ...[2]

ثانيـا: الأخـلاق والتعـاون: يؤكـد ابـن خلـدون علـى أهميـة خِـلال الخيـر فـي اسـتمرار الدولـة، وقـد عرفنـا أن مـن أهـم خصـال الجيـل الأول، جيـل البـداوة، أن نفوسـهم أقـرب إلـى خصـال الخيـر باعتبـارهم أقـرب إلـى

[1] – ن،م ، ص 278 .

[2] – محمد فاروق النبهان ، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة ، م.س ، ص 178 .

الفطـرة ،أمـا خِـلال الشـر فعارضـة للإنسـان مـن حيـث القـوى الحيوانيـة (الشهوات)... [1]

لا تنـاقض بـين الملـك الحاصـل بالعصـبية والغلبـة والأخـلاق، إذ أن السياسـة إذا اعتمـدت العـدل والمسـاواة وإيفـاء الحقـوق ضـمنت قـوة الملـك واسـتمرار الدولـة وزُرعـت الثقـة بـين الرعيـة والراعـي وزاد العمـران واتسـعت الصـنائع، وفـي هـذا يؤكـد ابـن خلـدون أن اسـتقرار الحكـم لأهـل العصـبية يحصـل بارسـاء دعـائم الأخـلاق التنـافس " فـي الخيـر وخلالـه مـن الكـرم والعفـو عـن الـزلات والاحتمـال مـن غيـر القـادر، والقـرى للضـيوف وحمـل الكـلّ، وكسـب المعـدم والصـبر علـى المكـاره والوفـاء بالعهـد وبـذل الأمـوال فـي صـون الأعـراض ، وتعظـيم للشـريعة وإجـلال العلمـاء الحـاملين لهـا ...وبـالعكس مـن ذالـك إذا تـأذن لله بـانقراض الملـك مـن أمـة حملهـم علـى ارتكـاب المـذمومات وانتحـال الرذائـل وسـلوك طرقهـا ، فتفقـد الفضـائل السياسـية مـنهم جملـة." [2]وإشـارته هنـا إلـى قولـه تعـالى:﴿ **وإذا أردنـا أن نهلـك قريـة أمرنـا مترفيهـا ففسـقوا فيهـا فحـق علـيهم القـول فدمرناها تدميرا** ﴾ **-الإسراء 16-** .

العـدل أسـاس المُلـك، مـن لـوازم الأخـلاق وحكـم النـاس وسياسـتهم بـالأخلاق والفضـائل تزيـد فـي حـبهم وثقـتهم فـي الحـاكم فيحصـلون لـه وحـين تشـعر النفـوس بالثقـة فـي حكامهـا تطمـئن نفوسـهم ويقبلون على العمل فيكثر الإنتاج ويعم الرجاء.

وبالمقابـل فـإن الظلـم يـدفعها إلـى الخمـول واللامبـالاة؛ ليـأس نفوسـهم وملـك الخـوف علـيهم وهـو مـا يـدفعهم للتكاسـل عـن القيـام

[1] - تاريخ العلامة ابن خلدون ، م.س ، ص 250 ، 251 .

[2] – ن،م ، ص 251 ، 252 .

بالصنائع وأحوال المعاش، وفي هذا نجد ابن خلدون منطلقا من مرجعيته الدينية حيث تحتل الأخلاق قمة الهرم في السياسة الإسلامية ولا قيمة لحاكم لا يأخذ الناس على مقتضى الخلق الرفيع، ولتقارن بين ما أكده بن خلدون من خلال استقرائه لحوادث التاريخ وبما ذهب إليه بعض رجال السياسة في الفكر الغربي وبعض أقطابهم إلى أن الغاية تبرر الوسيلة وجعلوا من ذلك قاعدة للحكم.

ثالثا) المال: ومما يبنى عليه الملك عند ابن خلدون المال يقول: " إعلم أن مبنى الملك على أساسين لابد منهما، فالأول الشوكة والعصبية وهو الُمعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولائك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال." [1]

فقوة الدولة لا تتحقق إلا باقتصاد قوي يزيد في توسيع العمران فيأمن الناس فيه على معاشهم فيزيد النشاط الاجتماعي ويكثر النسل، ووفرة المال عند ابن خلدون ترف معتدل يزيد الدولة في أوّلها قوة إلى قوتها والسبب في ذلك " أنَّ القبيل إذا حصل لهم الملك والترف وكثر التناسل والولد والعمومة، فكثرت العصابة، واستكثروا أيضا من الموالي والصنائع وربيت أجيالهم في جو ذلك النعيم والرفه، فازدادوا بهم عددّا إلى عددهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصائب حينئذ بكثرة العدد"[2].

ويكون هذا في أول مراحل الدولة ،لكن إذا تحول المال إلى غاية في حد ذاته يُجمع ويُكنز، وإذا تحول إلى تبذير ورفه ووسيلة لتحقيق أنواع الملذات، حينئذ يصبح أداة لانهيار الدولة؛ لما يسببه الرفه

[1] – ن،م ، ص 251 .

[2] – ن،م، ص 309 .

مـن نعومـة وجـبن وتعلّـق بمتـاع الـدنيا، ولهـذا فـالترف أو الـوفرة الماديـة لا تُذم لذاتها ولكن لسوء استخدامها.

ـــ **حقيقـة الأزمـة فـي العـالم العربـي المعاصـر**: تبـدو حالـة العـالم العربـي اليـوم غيـر مسـتقرة ؛ فـي ظـل أوضـاع متأزمـة ،تواجهـه تحـديات كبـرى تهـدد بنيتـه العضـوية،ويظهر أنـه مـدفوع دفعـا لخـوض معركـة بقـاء ، لـم يسـتعد لخوضـها ، بمـا يؤهلـه لتحقيـق أدنـى انتصـار أو الخـروج علـى الأقـل بـأدنى الخسـائر،،،،والمرحلة القاتمـة للتخلـف الـذي تعيشـه الأمـة هـو امتـداد لمرحلـة مـا بعـد الحضـارة كمـا يسـميها مالـك بـن نبـي (1905– 1973 م) (رحمه الله)...

والمشـكلة الأسـاس هـي مشـكلة تخلفـه الحضـاري التـي لا تـزال تثقلـه وتشـده إلـى ترابـه البـائر فـي زمنـه الضـائع،،،يقول مالـك بـن نبـي (رحمـه الله): " مشـكلة كـل شـعب هـي فـي جوهرهـا مشـكلة حضـارته، ولا يمكـن لشـعب أن يفهـم أو يحـل مشـكلته مـا لـم يرتفـع بفكرتـه إلـى الأحـداث الإنسـانية ومـا لـم يتعمـق فـي فهـم العوامـل التـي تبنـي الحضـارة أو تهـدمها. ومـا الحضـارات المعاصـرة والحضـارات الضـاربة فـي ظـلام الماضـي والحضـارات المسـتقبلية إلا عناصـر للملحمـة الإنسـانية... تتمثـل فيهـا جهـود الأجيـال المتعاقبـة فـي خطواتهـا، المتَّصـلة فـي سـبيل الرقـي والتقـدم. وهكـذا تلعـب الشـعوب دورهـا، وكـل واحـد منهـا يُبعـث ليكـوَّن حلقتـه فـي سلسـلة الحضـارات حينمـا تـدق سـاعة البعـث معلنـة قيـام حضـارة جديـدة ومؤذنة بزوال أخرى". [1]

يمكننـا أن نلـتمس فـي أفكـار ابـن خلـدون بعـض مـا يمكننـا إسـقاطه علـى مشـكلاتنا الحضـارية فـي هـذا العصـر،،لأن سـنن التغييـر الاجتمـاعي

[1] – مالك بن نبي ، شروط النهضة ،م،س ،ص19 ،20

سنن مضطردة يمكننا التحقق بها لفهم هذه المشكلات ووضع خطط لحلّها.

1- دور العصبية: يجعل ابن خلدون قوة العصبية أساس قيام الدولة ويعتبر ضعفها سبب سقوط الدولة،، بل إننا نفهم أهمية الدعوة الدينية،كأنها مجرد عاضد لها،،،يقول:" إن الدعوة تزيد(لاحظ) الدولة في أصلها قوة العصبية..... والدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم."[1]،ولعل هذه النظرية تصدق على المجتمعات القبلية لكن في عصرنا حيث قوة المؤسسات خاصة في العالم الغربي ،تجعل نظرية العصبية بالمفهوم الخلدوني بعيدة عن الواقع،[2]، نعتقد أن القيم الروحية للدين قد محت أو على الأقل قلّلت بشكل كبير تأثير العصبية على المجتمع، كما حدث في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم)وعصر الخلافة ،ولعلّ العصبية اليوم قد تصدق على عصبية جماعات المصالح المادية أو السياسية.حيث يتواطأ أصحاب المصالح الخاصة ولوبيات الضّغط من أصحاب رؤوس الأموال على التحالف ضمن شركات كبرى (كارتلات) ،تستطيع من خلال النفوذ والضغوط الاقتصادية وتمويل الحملات الانتخابية للاستيلاء على الحكم (حماية لمصالحها) وكسبا لمزيد من النفوذ والمكاسب المادية.

[1] ـــتاريخ العلامة ابن خلدون، ص 278 ،279.

[2] - حسين مؤنس، الحضارة ، سلسلة عالم المعرفة رقم 237 ، ط2 ، الكويت : مطابع الرسالة، 1419 هـ/1998م ،ص 168. 171 .

2- أسباب انهيار البناء الاجتماعي:

يرى ابن خلدون أن سقوط الدولة أمر حتمي لأن قانون الحركة التاريخية يقتضيه ،لكن ذلك مرتبط بأسبابه، وأهم أسباب سقوط الدولة أمران: الترف والظلم...

***التـرف** (الرفاهية): حيث يتحوّل المال إلى غاية، يجمع وينفق في أنواع الملذات وتلبية أصناف الشهوات من مأكل وملابس ومراكب ... حينئذ تذوي أخلاق البداوة وخلالها كالصبر والشجاعة، والأنفة وما تقوم عليه علاقاتها من قوة العصبية ، فيحصل لهم بالترف أخلاق معاكسة ، كالجبن ، قلة الصبر الاستسلام، الكسل.... فيصبحون في حاجة إلى ما يدافع عنهم كالنساء والولدان، بل ويعجزون حتى عن القيام بالضروري من أمورهم لرخاوة أجسادهم ونعومتهم، ويتجرؤون في أحاديثهم عن الفواحش وتنحرف أخلاقهم....[1]وخطورة الترف هي في تحول التحسينيات ضروريات،واستشراء داء الكسل والخمول والدعة التي تبطيء الحركة الاجتماعية شيئا فشيئا إلى أن تتوقف.... وقد تتوافق هذه الفكرة مع ما تعانيه الكثير من المجتمعات العربية اليوم من ضياع أخلاقي وتفكك أسري وأمراض وانحرافات، وبروز الطبقية المقيتة ؛حيث تعاني الأقلية التخمة بينما تعاني الأكثرية الجوع...." وما جاع فقير إلا بتخمة غني".... وحتى في الفكر الغربي نجد من يحذر من انغماس المجتمع في الترف ويتوقع سقوط الحضارة بسببه مثل ما ذهب إليه (اشبينغلر،آرنولد تونبي، آلبرت شواتزر.....).ولا يخفى أن الانغماس في النّعيم مفسد للأخلاق، ويجري ذلك على المجتمعات كما يجري على الأفراد..

[1] – ابن خلدون ، تاريخ العلامة ابن خلدون ،م،س ،ص،ص ، 247 ، 522 .

***الظُّلم:**

وهو الاستبداد بالملك ؛ أي أن الحاكم يُعرض عن مشاورة أهل الشورى من حاشيته وأهل عصبيته. ويحصل ذلك في المرحلة الثانية، فينقلب الملك من العدل ومشاركة أهل العصبية في الحكم إلى الاستبداد به؛ لأن " الملك منصب شريف ملذوذ، يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه التنافس غالبا، وقلّ أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه فتقع المنافسة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة"[1]. ويحتاج الملك إلى زيادة أرزاق الجند ويكثر من أعطياتهم فيزيد الترف ويكثر التبذير، ما يلجأ معه الملك إلى الزيادة في الضرائب الكثيرة على التجار والحرفيين والصناع والزرّاع ويقهرهم على دفعها لمداراة جنده بالمال وهؤلاء طبقة غير منتجة ؛ يؤدي ذلك إلى اشتداد الظلم على الناس فيضعف العمران، بما يؤدي إلى ضعف الدولة وبتالي سقوطها (**والظلم مؤذن بخراب العمران**)، كيف يحدث ذلك ؟....يجيبنا ابن خلدون بقوله:" إعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم، وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السّعي في ذلك."[2]،فقهر الناس وغصبهم أموالهم وغمطهم حقوقهم يدفع بهم إلى **اليأس وفقدان الأمل** والخوف على أنفسهم وأموالهم ما يجعلهم يخفون هذه الأموال،ولا يغامرون باستثمارها،،فتتحول إلى ثروة مكتنزة بدل أن تكون رأسمالا منتجا.مما يعطل حركية الانتاج فيتوقف النموّ..وتحدث الأزمات...

[1] – تاريخ العلامة إبن خلدون،م،س ، ص 271 .

[2] – ن،م ، ص 525 ، 526 ،.

وللظلم عن ابن خلدون معنى شاملا لكل تعدي من السلطة الحاكمة ، فـ" **كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه... ووبال ذلك عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها؛ لإذهابه الآمال من أهله.**"[1]، .....ومن أشد الظلم ،تسخير الناس في أعمال دون إعطائهم مقابلها حقوقهم التي يستحقونها ، مما يؤدي إلى عزوفهم عن العمل ،كذلك ما تقوم به الدولة من شراء السلع من العمال والفلاحين بأسعار زهيدة واحتكارها ثم إعادة بيعها لهم بأثمان باهظة ... وهو ما يؤدي إلى كساد السوق وضعف العمل وقلة الإنتاج فتتحلل الدولة ويضعف عمرانها، كل ذلك بسبب الترف وأنواع الجبايات التي يستكثرون منها ويسمونها بألقاب شتى، يقول:" **ثم لا يزال التّرف يزيد والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى أموال الناس تشتد، ونطاق الدولة (سلطتها) بذلك تزيد إلى أن تنمحي دائرتها ويذهب رسمها ويغلبها طالبها، والله أعلم**"[2].

ومما يؤكد عالمية فكر ابن خلدون وتأثير أفكاره اللمّاحة، ما ذكره الباحث (سعد الدين ابراهيم) **أن الرئيس الامريكي السابق (رونالد ريقن) نفسه استشهد - وهو يعرض برنامجه الاقتصادي على الشعب الامريكي على التلفزيون شتاء عام 1983 م بابن كلدن (أي ابن خلدون كما نطقها الرئيس)، الذي قال أن كثرة الضرائب الفادحة تصرف**

[1] – ن،م، ص 510 .

[2] – ن،م ، ص 513 ، 514 .

المواطنين عن الانتاج والاستثمار الذي يستفيد منه البلد وتدفعهم إلى كنز أموالهم. بما يعود بالضرر على الاقتصاد الوطني.[1]،

وهو ما يثبت فعلا ألمعية ابن خلدون في فكره السياسي والاقتصادي، ومن هنا ندرك كيف استطاعت السياسة في الغرب الاستفادة حقا من أفكار هذا العبقري بينما لم تتحقق فعاليتها في العالم الإسلامي، تماما مثلما قال مالك بن نبي-بحق-:" **والحقّ أن الاقتصاد في الغرب قد صار منذ قرون خلت ركيزة أساسية للحياة الاجتماعية، وقانونا جوهريا لتنظيمها.**

أما في الشرق فقد ظلّ على العكس من ذلك في مرحلة الاقتصاد الطبيعي غير المنظّم، حتى أن النظرية الوحيدة التي تناولت تأثير العوامل الاقتصادية في التاريخ – وهي نظرية ابن خلدون- قد ظلّت حروفا ميّتة في الثقافة الإسلامية، حتى نهاية القرن الأخير"[2].

وما ذهب إليه ابن خلدون مما ينبغي أخذه بعين الاعتبار ،لأن من أهم أسباب التخلف الاقتصادي في مجتمعاتنا العربية هو هذا الظلم الواقع على الناس في مجالات العمل المختلفة: زراعة، صناعة أو تجارة....

وكثير من دارسي الحضارات في الغرب يتّفقون مع ابن خلدون في ما ذهب إليه من خطورة دور كل من الترف من جهة والاستبداد من جهة أخرى ،في انهيار الدول وسقوط الحضارات، أما الترف فهو العامل

[1] - أحمد صبحي منصور ،مقدمة ابن خلدون،دراسة أصولية تاريخية ،تقديم سعد الدين ابراهيم،، القاهرة :مركز ابن خلدون، دار الامين للنشر، 1998م،ص6.

[2] -مالك بن نبي ،فكرة الافريقية الآسيوية،ترحمة عبد الصبور شاهين،ط3،الجزائر ،دمشق،دار الفكر،1413هـ/1992م.ص159.

الأساسي في ذلك كما يؤكده (غوستاف لوبون) و(الكسس كاريل) و(ديورانت) و (آرنولد توينبي) فديورانت يذكر أن السنن التاريخية التي تكاد تنطبق على جميع العصور أن الثراء الذي يخلق المدينة هو نفسه الذي ينذر بانحلالها وسقوطها، ذلك أن الثراء يبعث الخمول ويرفق أجسام الناس وطباعهم ... [1] وهذا ما يؤكده القرآن نفسه في الآية التي ذكرناها. حول استحقاق القرية التي يشيع فيها الترف التدمير الكامل،في قوله تعالى: ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليهم القول فدمرناها تدميرا** ﴾ **-الإسراء /16-**

وفي قوله : ﴿ **وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون، قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين**﴾ **(الأنبياء 11...14)**

ويذهب أحد الباحثين إلى أن الترف هو السبب الرئيسي في انحلال الحضارات، لكنّه في الدولة العربية أكثر تأثيراً وسرعة في التدمير ، ويرجع ذلك إما إلى كون الدولة العربية تنتقل مباشرة من حياة الشّطف إلى حياة الترف مما يعرّضها لتخمة قاتلة أو أن افتقار بنيتها الداخلية للنظم والمؤسسات المحكمة التي تحفظها من عدوان نفسها على نفسها بسبب عجز العلماء المسلمين عن تطوير مبادئ الإسلام إلى نظم وقوانين وتحصينها بمؤسسات تسهم على تنفيذها...[2]

[1] - عبد الله اشريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون ، سلسلة الدراسات الكبرى . د.ط ، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د.ت، ص 363...365.

[2] - ن،م ، ص 351 ، 352 .

يُـرَجَّح (حُسـين مـؤنس)،وهـو باحـث فـي التـاريخ، الاحتمـال الثـاني، حيـث يـرى أن سـقوط الدولـة لا يرجـع إلـى بلوغهـا عمـرًا محـددًا لا تتجـاوزه لأنهـا لـم تقـم علـى مؤسسـات بـل علـى فـرد انقطعـت صـلتهم بالأمـة (أي انقطـاع الصـلة بـين الحـاكم والمحكـوم)، ويعتبـر مـا يسـميه ابـن خلـدون هـرم الدولـة سـوء سياسـة ناشـئ عـن قيـام الدولـة علـى الغصـب والقهـر والظلم واستحواذ العسكر على المال[1].

أماسـوء عاقبـة الاسـتبداد بـالحكم دون الرعيّـة وإهمـال مبـدأ الشـورى الـذي أمـر بـه الله تعـالى نبيـه الكـريم مـع انـه مؤيـد بـالوحي: ﴿ **فـأعف عـنهم واسـتغفر لهـم وشـاورهم فـي الأمـر**. ﴾ **(آل عمـران /159)** ،ومـا يـؤدي إليـه ذلـك مـن تقـويض أسـس الدولـة، فـأمر صـحيح تؤيـده وقـائع التـاريخ ، وقـد أصـاب ابـن خلـدون فـي تحليـل اثـر الاسـتبداد فـي فسـاد العمـران وخرابـه، والـذي يـؤدي إلـى انهيـار الدولـة ؛لأنـه يـؤدي إلـى فقـد الثقـة بـين الحاكم والمحكوم وعزوف الناس عن عمل والإنتاج....

ولعـلّ هـذا مـن أهـم الأسـباب التـي عجلـت بسـقوط الاتحـاد السـوفيتي وانهيـار المعسـكر الاشـتراكي وانقسـامه كمـا يشـير إليـه رئـيس الاتحـاد السـوفيتي والأمـين العـام للحـزب الشـيوعي غورباتشـوف فـي كتابـه عـن سياسـة الإصـلاح إعـادة البنـاء (البيريسـترويكا). [2] . أدرك الغـرب هـذا الأمـر الخطيـر فعملـوا علـى ارسـاء دعـائم العـدل الاجتمـاعي لارسـاء دعـائم دولهـم،،، وكـان الفصـل بـين السـلطات والحـرص علـى الاسـتقلال الفعلـي (لا الـدعائي) للسـلطة القضـائية عـن السـلطة التنفيذيـة هـو العامـل

[1] – حسين مؤنس ، م. س ، ص 174 ، 175 .

[2] – ميخائيل غورباتشوف ، بيريسترويكا ، نظرات جديدة على بلادنا وعلى العالم ، ترجمة العربي سي لحسن ، د.ط، الجزائر : موفم صاد ، دت، ص، ص 16 ...18 ، 46 ، 90 ، 91 .

الأساس لتحقيق ،وقد نجحوا في ذلك ،حيث انعكس ،جوا من الحرية ،فأمن الناس على حقوقهم ،وحصلوا الثقة في حكامهم، وخشي الحاكم أن يتعسف في أمور الرعية،،،وحصل الاتقان في العمل لأمن تحصيل الحقوق،،،في المقابل لم يستطع الحكم في عالمنا العربي إلى اليوم أن يرفع قبضته عن القضاء،،وبقية السُّلط الأخرى؛ مما ولّد دكتاتوريات في ثوب جمهوريات وهو سبب خراب العمران،وتخلف المجتمع....وأصبح من المسلّم به عندنا حتى في أدبياتنا الشعبية أن الغرب ما انتصر علينا إلا بعدله الاجتماعي.

***الثورات الداخلية ودورها في خراب العمران** :

لا يهتم ابن خلدون بشكل السلطة الحاكمة ،خلافة أو ملكا،،،،المهم تنفيذ العدل، فملكية عادلة خير من خلافة أو جمهورية ظالمة..

لا شكّ أن الظّلم والقهر والاستبداد إضافة إلى الترف والانغماس في النعيم ،يشكلان البيئة المناسبة لظهور الحركات الاحتجاجية التي تأخذ طابعا عنيفا على شكل ثورات لتغيير الأوضاع واستعادة الحقوق...فالثورة في حقيقتها نتيجة للتّرف الذي تنغمس فيه طبقة الحكم والظلم الذي تمارسه على الشعب...

وقد أشار(ابن خلدون) إلى تلك الحركات الثورية عبر التاريخ الإسلامي ، بما يحمل كثيراً من الأسى والسخرية معا، فيقول :" ومن هذا الباب أحوال الثوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفقهاء، فإن كثيرا من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أصل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه، والأمر بالمعروف رجاء في الثواب عليه من الله، فيكثر إتباعهم والمتشبّيثين بهم

مـن الغوغـاء والـدهاء، يعرضـون أنفسـهم فـي ذلـك للمهالـك، وأكثـرهم يهلكـون فـي تلـك السـبيل مأزورين[كـذا!] غيـر مـأجورين ؛لأن الله لـم يكتـب ذلـك علـيهم، وإنمـا أمـر بـذلك حـين تكـون القدرة..هـذا بالنسـبة للمخلصـين منهم أما المبُلسين في طلب الرئاسة فهؤلاء أكيد هلاكهم". [1]

يعلـق أحـد البـاحثين، علـى مـا ذهـب إليـه ابـن خلـدون بقولـه: " لأن تشـجيع الثـورات فـي شـعب أمـي لـم يتـزود بتجربـة سياسـية ولا يملـك مسـيروه قاعـدة مـن المبـادئ الأخلاقيـة يقيمـون عليهـا حركـاتهم، لا يـؤدي إلا إلـى الفوضـى التـي تشـمل مختلـف أنحـاء الـبلاد وتحـرم النـاس حتـى مـن فتـرة اسـتقرار وطمأنينـة يتصـرفون فيهـا إلـى معالجـة شـؤون حيـاتهم اليوميـة، ولـو عجـزوا عـن القيـام بالأعمـال الحضـارية القويـة.وليس ابـن خلـدون هـو الـذي يجهـل مـا جرّتـه الانتفاضـات والثـورات فـي بـلاد المغـرب مـن عوائـق البنـاء الحضـاري والتقـدم العمرانـي..." [2] . وهـو مـا يتوافـق حاليـا مـع فكـر جماعـات المفاصـلة والتكفيـر التـي تـدعوا إلـى الثـورة علـى الحكـام الـذين لا يحكمـون بمـا أنـزل الله، وهـو مـا أدى إلـى فـتن وفوضـى؛ لأن رسـوخ أقـدام الحكـم فـي هـذا الوقـت لا يرجـع إلـى قـوة العصـبية الدمويـة، بـل يرجـع إلـى الإمكانيـات الهائلـة للدولـة والقـدرة الفائقـة للجـيش بفروعـه وأقسـامه المختلفـة التـي لا تقـدر عليهـا أي جماعـة تريـد الخـروج المسـلح علـى الحـاكم، الـذي يملـك مـن الإمكانيـات الماديـة والعسـكرية مـا تعجـز عنـه أي قوة تملكها جماعة معينة تريد الاستيلاء على الحكم [3]

---

[1] – ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، ، م،س، ص280،281.

[2] – عبد الله اشريط، م،س ،ص377، 378.

[3] – عبد الحميد متولي ، أزمة الفكر السياسي الاسلامي في العصر الحديث ، ط2 ، مصر : نشأة المعارف ، د ت ، ص 276 ، 277

ولـيس بخـافٍ مـا جنـاه اسـتعمال العنـف فـي التغيير،حتـى صـارت دورة خبيثـة مـن الثـورة والاستئصـال كظـاهرة يتآكـل بهـا المجتمـع مـن داخلـه كدوره للاهتلاك الحضاري يلخصها أحد الباحثين بقوله:

"...فـلا يكـاد يخطـئ الباحـث أن نموذجـا خبيثـا يتكـرر منـذ سـنوات فـي عالمنـا العربـي... نمـوذج يبـدأ بظهـور شخصـية ذات صـفات قياديـة تحمـل فكـرا أعرجـا ممـا هـو متـراكم فـي كتـب التـراث... ثـم التفـاف مجموعـات مـن الشـباب حـول هـذا الفكـر الأعـرج...منهم مـن هـو مـؤمن ومـنهم مـن هـو مشـبوه، ثـم نمـو التيـار لحجـم حـرج، فتـوريط التيـار عـن طريـق المشـبوهين فـي داخلـه وحمـق أفكـاره فـي أحـداث حمقـاء بالغـة الحماقة، فانقضاض أجهزة الأمن على التيار وإجهاضه..." [1]

ولا ريـب أن مـا عرفتـه الكثيـر مـن مجتمعاتنـا العربيـة فـي عصـرنا ممـا يسـمى بثـورات الربيـع العربـي ،مـا يمكـن اعتبـاره نموذجـا لحركـة تـدمير المجتمـع وتخريـب العمـران ..وهـو مـا تؤكـده الأوضـاع اليـوم فـي ليبيـا، سـوريا، مصـر.....دون أن ننسـى مـا عاشـه المجتمـع الجزائـري إبّـان مـا يسـمى بالعشـرية السـوداء...والتي خلفـت آثـارا (نفسـية ومادية) خطيـرة مـا زال المجتمع الجزائري يتجرّع علقمها إلى اليوم....

ومنطـق التغييـر الاجتمـاعي يشـير إلـى أن هـذه السُّـلط الحاكمـة فـي المجتمعـات العربيـة إذا أرادت تفـادي مـآزق مثـل هـذه الثـورات التدميريـة،فما عليهـا إلا تفـادي أسـبابها الرئيسـية، التـرف وصـنوف التبـذير بالاعتـدال فـي المعيشـة وإعطـاء النمـوذج والقـدوة ،وتفـادي الظّلـم بمفهومـه

[1] -- سيد دسوقي حسن، ، ، مقدمات في مشاريع البعث الحضاري، ط1، الكويت، دار القلم 1407ه/ 1987، ص46، 47.

الواسع،،أقلُّه تطبيق حدي صارم بين السلطات وخاصة الفصل بين السلطة التنفيذية والقضائية...لإرساء دعائم العدل وإعادة الأمل للناس ،وهو الشرط الأساس في التنمية الاجتماعية البشرية؛لأن الإنسان أساس أي مشروع تنموي.....

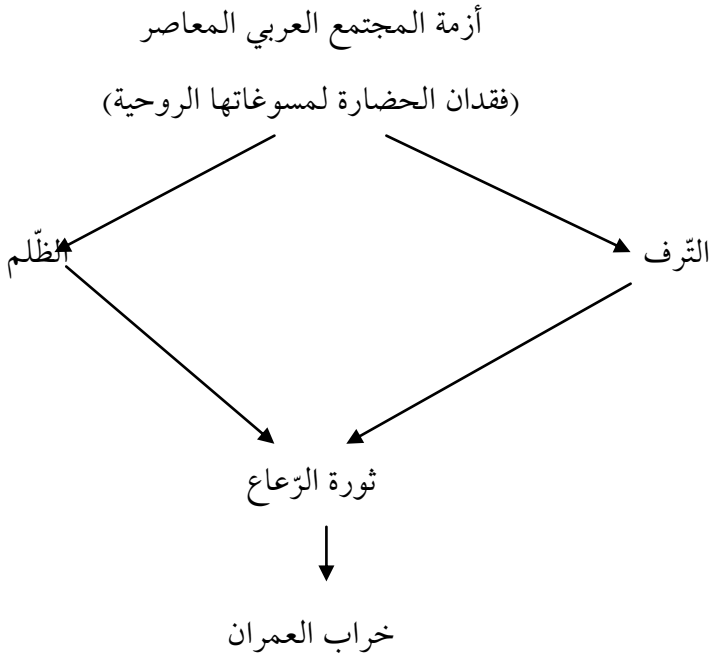

لكن المشكلة عند ابن خلدون ،اعتباره أي محاولة للتغيير محاولة عابثة،لأن الدورة الحضارية حتمية، وكل محاولة لتفادي السقوط مآلها الفشل ؛ من حاول ذلك فكأنما حاول وقف الهرم في الكائن الحي ، فما يعرض للدولة من أحوال النشأة ثم الحضارة ثم الهرم فالسقوط كما مرّ ، كلها أمور طبيعية ، وكما أن أسبابها أمور طبيعية أيضا فتأخذ طابع الحتمية، وكل من حاول إصلاح الأمور لتفادي السقوط منعته العادات وتقاليد المجتمع وهو ما يسميه ابن خلدون العوائد " ولو فعله

لرمي بالجنون والوسواس ، والخروج من العوائد الجملة ..." [1] **فسقوط الحضارة أمر حتمي وسنة مضطردة في مجرى التاريخ** ، ولعل هذا ما يجيبنا عن سؤال مهمّ: لماذا لم يكلف ابن خلدون نفسه في البحث عن وسائل وطرق معالجة هرم الدولة ، حتى أن تحليله للدورة التاريخية يدعو فيه لليأس من كل جهد تغييري حيث يقول: " وقد ينتبه كثير من أهل الدولة ممن له يقظة في السياسة ، فيرى ما نزل بدولتهم من عوارض الهرم، ويظن أنه ممكن الارتفاع فيأخذ نفسه بتلافي الدولة وإصلاح مزاجها عن ذلك الهرم، ويحسبه أنه لحقها بتقصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم ، وليس كذلك ، فإنما هي أمور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافيها " [2]

نشير في الأخير إلى ما ذكره أحد أبرز تلامذة ابن خلدون وهو (مالك بن نبي) رحمه الله الذي اعتبر أن **التاريخ حركة اجتماعية تبعثها مجموع عوامل نفسية ناتجة عن دفعة الروح؛ بما تشكله من طاقة يبعثها الإيمان في النفس والذي يجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ الإنساني**[3]

فقرار معاوية بتحويل الخلافة الى ملك -وإنْ كان في ظاهره قرارا سياسيًا- إلاّ أنه كان ذو أبعادٍ حضارية عميقة حيث أفقد المجتمع توازنه الأولي بين الروح والعقل، ساهم في إخماد الروح وإضعاف سلطتها على الغرائز وشيئا فشيئا تخمد الطاقة وتتوقف الحضارة، ثم لا تلبث أن تنهار بفعل قوة الجذب الأرضي " **فحيثما فُقدت الروح(منبع الأخلاق)،**

[1] – إبن خلدون،تاريخ العلامة ابن خلدون ، ص 520 ، 521 .

[2] – نفسه ، ص 520 .

[3] – مالك بن نبي ،ميلاد مجتمع ، ميلاد مجتمع،ترجمة عبد الصبور شاهين،اشراف ندوة مالك بن نبي ،ط3،الجزائر ودمشق:دار الفكر،1406ه/1986م ،ص26

كان السُّقوط والانحدار؛ لأن كل من يفقد قوته التصاعدية لابد له من الانحدار بتأثير ثقله الذي لا يقاوم....

فإذا ما وصل المجتمع إلى هذه المرحلة من تطوره ،وخمدّ النَّفَس الذي بعث الحياة لأوّل مرة، أدرك نهاية الدورة التاريخية، وهاجرت المدينة إلى منطقة أخرى تبدأ فيها دورة تاريخية جديدة تعتمد على تركيب عضوي تاريخي جديد، ويفقد العلم في المنطقة الفارغة كل معنى ، فحيثما يخمد إشعاع الروح يكف نشاط العقل ، حتى لكأن الإنسان، يفقد تعطّشه إلى المعرفة والعمل إذا ما فقد الاندفاع الذي يبعثه فيه الإيمان".. [1]

ونجد أن ابن خلدون نفسه يُرجع زوال العمران واضطراب المجتمع إلى ما يحصل حين تتحول السياسة من تنافس في الخير إلى تنافس في الشر، وتحول الحاكم من ممارسة الإقناع إلى التمادي في القهر والتغلب ، وتحول الخلافة التي تقوم على القانون إلى ملك يقوم على القهر وفتح المجال لصراع العصبيات ،...ويظهر التحول الشامل نحو الفساد، ففي مظهره الخلقي حصل الصدوف عن طلب السياسة للحق إلى طلبها للباطل ، وفي مظهره الاجتماعي انتصار منازع الملك ومقتضى العصبية على مقتضى القانون ، وفي مظهره الاقتصادي تركز الثروة في يد الأقلية وجنوحها إلى الترف والانحلال ، وفي مظهره

[1] مالك بن نبي ، مستقبل الاسلام ، ترجمة شعبان بركات ، د، ط ، صيدا ، بيروت : المكتبة العصرية ، د ت ، ص15، 16 ووجهة العالم الاسلامي .م س ، ص 29،30.

السياسي ، الانفراد بالسلطة والاستبداد بالقرار...ومن هنا نشأت الثورات والفتن والتنافس على الملك والاستبداد به. [1]

وما يقرره مالك بن نبي حول توقف إشعاع العقل بفعل فراغ الروح في المرحلة الغرائزية، يشير إليه ابن خلدون، إذ أن ضعف الإبداع يرجع إلى اضطراب العمران وانتشار الظلم وقهر الرعية وكبت الحريات وهي من خصائص مرحلة الهرم ، مقابل ذلك فإن الإبداع العقلي والتمدني إنما يزدهر في مرحلة الحضارة حين تستقر الدولة وينتشر عمرانها وتزدهر المعايش ويأمن الناس على أنفسهم أموالهم.[2]

ولعل ما ذهب إليه ابن خلدون يسانده واقع الحضارة الغربية، وما تعرف من ازدهار مادي وتقدم علمي وتقني غير مسبوق بفعل التنظيم الدقيق وجو الحرية،... رغم ما تعانيه مجتمعاتها من فراغ روحي يشتكي منه عقلاؤهم.

أرجع مالك بن نبي أصل المشكلة إلى ضعف الدفع الروحي (القوة الإيمانية) بما جعل حركة المجتمع تضعف شيئا فشيئا مثل الآلة التي تتوقف حركتها تدريجيا لنقص الوقود. ففي المجتمع التاريخي إذا ضعفت الروح شكل ذلك إيذانا بتوقف المجتمع وتقهقره، وفي مجتمع كهذا يفقد العقل إشعاعه ويصاب بالجمود لأن الأفكار الحية لا تجد لها صدقا في مجتمع مريض، مثل تلك الأفكار الحية التي أبدعها عقل (ابن خلدون) والتي لم يستطع المجتمع أن يفهمها أو يستفيد منها. ....

[1] حسن صعب ، الاسلام وتحديات العصر .ط 5 ، بيروت . دار العلم للملايين ، 1981 ، ص84 ،85.

[2] - تاريخ العلامة ابن خلدون ، م.س ، ج 2 ، ص 777.

أمـا إمكانيـة التغييـر الاجتمـاعي وإصـلاح الأوضـاع فـأمر ممكـن بـدليل الآيـة الكريمـة التـي تجعـل إمكانيـة التغييـر فـي أيـدي أفـراد مجتمـع دون جبر وإكراه، في قوله تعالى: ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ - **الرعد 11**- وهـي سـنة التغييـر الاجتمـاعي الإرادي التـي تنفـي حتميـة السـقوط فـي الدولـة،كما تنفيهـا النصـوص الكثيـرة التـي تـدعوا إلـى الإصـلاح والتغييـر ،وهـي عـين مـا قـام بـه الأنبيـاء والرسـل الكـرام وجـاء بـه الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) ومـا وصـف بـه الله تعـالى المـؤمنين: رجـال ونسـاء ،، قـال تعـالى:﴿**والمؤمنـون والمؤمنـات بعضـهم أوليـاء بعـض يـأمرون بـالمعروف وينهـون عـن المنكـر ويؤمنـون بـالله** ﴾ -التوبـة71-،ولا عبـرة بمـا بنظريـة الحتميـة أمـام سـنة التغييـر الثابتـة فـي القـرآن ((**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**)) (الرعد/11)....